الفكر التاريخي عند مسكويه

د. عاطف عباس حمودي القيسي
كلية العلوم الإسلامية – جامعة بغداد

المقدمة :

يتناول هذا البحث فكر أبي علي مسكويه وشخصيته وهو أحد أعلام الفكر التاريخي العربي خلال العصر العباسي عاش مسكويه في النصف الثاني من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس الهجري وتعرف هذه الحقبة بعصر النهضة في الإسلام[١] . يرتبط هذا المؤرخ بالإدارة العباسية ويعد من الكتاب الإداريين الذين استحوذوا على مناصب الإدارة العباسية ومؤسساتها ويرتبط شخصياً بالإدارة البويهية عن طريق خدماته الشخصية لعدد من الوزراء البويهين المتميزين مثل الوزير المهلبي وابن العميد ووزراء عضد الدولة وصمصام الدولة البويهيين[٢].

ومن خلال تقلده لهذه الوظائف وإشرافه عليها توفرت لمسكويه وثائق ديوان الإنشاء الخاصة بالدولة البويهية وبالخلافة العباسية مجتمعة ليضمها إلى مصنفه الكبير تجارب الأمم.

كان مسكويه ينظر إلى التاريخ والتصنيف التاريخي في ضوء الفلسفة الأخلاقية التي كان يقترن بها فكرة السياسي والتاريخي ويؤمن بوجود علاقة وثيقة بين الحوادث التاريخية والنظام الأخلاقي لبني البشر .

ويرى أن الإنسان يجد في حوادث التاريخ عظات وعبراً ترشده إلى طريق الخير والاستقامة وتبعده عن الزلات والأخطاء في نواحي الحياة كافة ، وكما يتضح ذلك جلياً من عنوان كتابه (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) أما مؤلفات

مسكويه فقد ترك لنا مجموعة كبيرة من المؤلفات التاريخية والفلسفية ومنها كتابه التاريخي ((تجارب الأمم وتعاقب الهمم)) الذي يضم أخبار سيرة أعيان ورجالات وقادة الجيش البويهي وعلاقاتهم بأحداث الخلافة العباسية والدويلات التي انفصلت عنها ، وهو من كتب التواريخ العامة مرتباً حسب السنين.

أما في الأخلاق فقد ألف كتاب ((تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)) وقد دعاه إلى تأليف مثل هذا الكتاب شعوره بحاجة الملوك إلى كتاب في الأخلاق للعلاقة القائمة بين العدل وقواعد الحكم ولانتشار ظاهرة الانحطاط الأخلاقي في عصره عند الخاصة والعامة .

ومن مؤلفاته الأخرى (كتاب السعادة ، وكتاب العقل والمعقول ، وكتاب إشعار مسكويه) وغيرها من المؤلفات الأخرى التي لم تصل إلينا حيث ترك مسكويه ثلاثة وأربعين مؤلفاً بين مقالة ورسالة وكتاب .

توطئة :

مولده ولقبه وكنيته وثقافته العامة :

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الخازن أصله من الري أحد أقاليم إيران الوسطى ، سكن أصفهان وتوفي فيها[٣] . ولا نعرف بالتحديد السنة التي ولد فيها مسكويه ، إذ ليس هناك من الكتاب القدماء من يعين السنة التي ولد فيها مسكويه ، لكن المستشرق الإنكليزي (مرغوليوث) عين تاريخ ولادة مسكويه وحددها سنة ٣٣٠هـ[٤] ولا نعلم طبيعة الروايات والأخبار التي اعتمد عليها (مرغوليوث) في هذا التحديد ، وأظن أن هذا التحديد جاء من قبيل التخمين والتقدير.

كما أختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته ، فياقوت الحموي حددها سنة ٤٢١ هـ[٥] . وهي السنة التي يقول عنها الباحثون – أما القفطي فقد حدد سنة

٤٢٠ هـ تاريخا لوفاته[٦] . أما كنية مسكويه فكان يلقب بالخازن ويلقب أيضاً بأبي علي والمعروف أن الكنية كانت تطلق عادة للتعظيم من شأن الرجل وكان عضد الدولة البويهي قد عينه خازناً وكاتماً لأسراره[٧] .

ثقافته العامة : لا تكاد تقدم لنا المصادر والمظان التاريخية التي بين أيدينا معلومات وافية عن نشأة هذا المؤرخ أو تحديد طبيعة ثقافته ، وكل الذي بين أيدينا هو عبارة عن معلومات يسيرة عن تربيته الأولى .

أما ثقافته العامة فكانت تشمل القراءة والكتابة والقرآن وأصول الدين والفقه والنحو ، وكانت هذه المواد تدرس في الكتاتيب والبيوت بواسطة معلمين خاصين[٨] . أن هذه الثقافة التي اشترك بها مسكويه مع سائر الناس في زمانه قد أفادته كثيراً ولكنها لم تكن هي السبب الأول في ظهور مسكويه المفكر والفيلسوف وإنما كان أستاذ الدرس والتحليل والاستنتاج والاجتهاد في أي موضوع من الموضوعات[٩] .

لقد كانت لمسكويه معرفة وألمام بمختلف العلوم الإنسانية ومنها الفلسفة والمنطق والتاريخ حيث يشير القفطي إلى ذلك فيقول ((وأن لمسكويه مشاركة حسنة في العلوم الأدبية والعلوم القديمة))[١٠] .

لقد كانت لمسكويه ثقافة تاريخية متميزة الا أنه لم يرحل كما فعل غيره من المؤرخين ليقفوا بأنفسهم على أخبار الأمم وطباعها . فنجد المسعودي مثلاً يرحل إلى بلاد الفرس والهند وبلاد المغرب والسودان ليأخذ المعلومات من مصادرها الأساسية[١١] . أما مسكويه فقد اعتمد على قراءة غيره من المؤرخين الذين تقدموه ولاسيما الطبري[١٢] . وثابت بن سنان والمعروف أن تاريخ ابن سنان يمتد من عهد المقتدر حتى سنة ٣٦١ هـ . ويذكره مسكويه بين حين وآخر لتجاربه الشخصية وإطلاعه على الكثير من أسرار الدولة لكونه طبيب البلاط[١٣] . وقد تأثر مسكويه به كثيراً واجتهد في أن يشير في كتبه إلى من أخذ

عنهم ذاكراً كل من أخذ عنه بين قوسين محدداً السبب الذي من أجله كان يروي حوادث التاريخ . وقد رتب حوادث التاريخ حسب السنين[١٤] .

وفضلاً عن ذلك فأن مسكويه كانت تتوفر تحت تصرفه مجموعة كبيرة من الوثائق بحكم ارتباطه بالسلطة البويهية عن طريق ديوان الإنشاء ، كما أن أسلوب الرحلات المتبع كان له ارتباط بالمؤرخين من جماعة المحدثين كالسمعاني مثلاً ، أو المؤرخين الجغرافيين كالمسعودي ، بينما كان المؤرخون الكتاب الذين ينتمي مسكويه إليهم يرتبطون بالإدارة مباشرة .

أن كثرة اتصال مسكويه بكبار رجالات الدولة في زمانه حيث صادق أكثر أمراء البويهيين ووزرائهم ، قد أغنى كتابه تجارب الأمم بالروايات المختلفة . وأن مجالسة مسكويه لهؤلاء الأمراء والوزراء كانت بمثابة مدرسة استقى منها مسكويه كثيراً من الحقائق والروايات من أحداث ورجال الحقبة البويهية من دون أن يرحل في طلبه كما فعل غيره من المؤرخين[١٥] .

أن الحوادث التاريخية التي رواها مسكويه جاءت عن طريق المشاهدة والمعايشة الفعلية للحدث والواقعة التاريخية ، من هذا نستنتج صحة ما يروي لنا هذا المؤرخ الكبير ويمكن الاعتماد عليه في وقائع تاريخية معينة تخص الخلافة العباسية وحقبة التسلط البويهي ، لأنه كان شاهد العيان والمسجل الأول لأحداثها . أن المحصلة التي نخرج بها بعد عرض هذه الأفكار البسيطة لحصيلة مسكويه في علم التاريخ أنه الرجل المؤرخ الذي يبحث في خفايا التاريخ والأمور السياسية للخلافة العباسية وحقبة التسلط البويهي . وما جرى لخلفائها من أحداث وأزمات على المستوى السياسي والحضاري .

المبحث الأول

عصر مسكويه

١ ـ بني بويه وعلاقة مسكويه بهم :

يرجع أصل البويهيين إلى الديلم الذين استوطنوا المنطقة الواقعة بين طربستان والجبال وجيلان وبحر الخزر . وقد انتشر الإسلام بينهم ولم يكن اعتناقهم له عميقاً[١٦] . لقد كانت الأسرة البويهية تتكون من ثلاثة أخوة هم : عماد الدولة علي بن بويه وركن الدولة الحسن بن بويه ومعز الدولة أحمد بن بويه وخدموا الدولة السامانية أولاً ثم تمكنوا من الاستحواذ على مناطق إيران الوسطى والجنوبية ، حتى نجح معز الدولة أحمد بن بويه من الاستيلاء على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ممثلاً لعماد الدولة الذي كان يحكم في شيراز . وكانت أحوال الخلافة مضطربة آنذاك على أثر الخلاف الذي نشب بين الخليفة المقتفي وأمير الأمراء توزون التركي[١٧] . ثم خلع الخليفة المستكفي وبويع أبو القاسم الفضل بن المقتدر الذي لقب بالمطيع[١٨] . لقد اندمجت حياة مسكويه بالبويهيين وكان لها أكبر الأثر في حياته المادية والعقلية وفي مركزه الأدبي حتى أنه عاش في زمن الكثير من أمرائها ففي صباه عاصر بختيار بن معز الدولة ٣٥٦-٣٥٧هـ[١٩] وفي شبابه اتصل بابن العميد وأبنه أبي الفتح[٢٠] . وفي رجولته عرف صمصام الدولة بن عضد الدولة ، ٣٧٢-٣٧٦هـ ، وفي شيخوخته أتصل ببهاء الدولة ٣٧٩-٤٠٣هـ[٢١] . وعاش مسكويه بقية عمره في حكم من تالي من أمراء بني بويه وأخيراً مات بعد أن عمّر طويلاً في أيام جلال الدولة ٤١٨-٤٣٥هـ[٢٢] . وبهذا يكون قد عايش الأحداث عن كثب وأطلع عليها بثبات ومن دون مجاملات لأمير أو خليفة أو سلطان وبهذا جاء تاريخه علمياً وموضوعياً لا يعتريه الشك ولم يهتم بالتحيز لأحد ، لقد مكنته منزلته الرفيعة التي نالها بعلاقته مع بني بويه من أن يطلع على المؤلفات القيمة فغذى عقله بها حتى نبغ

في كثير من فروع المعرفة والآداب وأصبح خصب التأليف ونعم بالاحترام والتبجيل.

٢ـ عصر مسكويه وازدهار العلوم الدينية والدنيوية :

أ – الازدهار العلمي والأدبي :

شهد عصر مسكويه تطوراً كبيراً في العلوم الدينية والدنيوية ، ولعل أول أسباب هذه الظاهرة المنافسة السياسية التي كان يثيرها البويهيون للعباسيين ومحاولاتهم تقليد العباسيين في الاهتمام بالعلوم والعمل على نشرها وكان من مظاهرها أن أصبح لكل أمير بويهي أو غير بويهي وزير يضاهي في فخامته الخليفة وهذا ما سبب تنافسهم في اجتذاب العلماء وأصحاب الرأي ليستشيروهم في أمورهم وليظهروا أمام الناس بمظهر الجلال والوقار فأدى ذلك إلى أن يزداد العلم والأدب وأهله وقاراً ومكانه ونبغ كثير من العلماء والأدباء الذين كان يفاخر بهم السادة .

ومن أشهر مجالس الأمراء في ذلك الوقت مجلس عضد الدولة الذي يقول عنه مسكويه (وبسطت رسوم للفقراء والفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحدثين والنسابين والمهندسين وأفرد في دار عضد الدولة لأهل الخصوص والحكماء من الفلاسفة موضوع يقرب من مجلسه وهو الحجرة التي يختص لها الحجاب وكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة)[٢٣] وذلك من أجل تقليد الخليفة ومحاكاته في أعماله الثقافية .

ومن أشهر مجالس الوزراء في ذلك الوقت ، مجلس أبن العميد إذ يقول مسكويه (رأيت بحضرته جماعة ممن يتوسلون إليه بضروب من الآداب والعلوم فما أحد منهم كان يمتنع من تعظيمه في ذلك الفن الذي قصده ، ... وكان رحمه الله يحسن عشرته وطهارت أخلاقه ونزاهة نفسه إذا دخل عليه أديب أو عالم

متفرد بفن سكت وأصغى إليه)[٢٤] . وبلا شك أن ذلك أثر في نفس مسكويه وفي نظرته الأخلاقية وتفسيره للتاريخ عند تصنيفه لتجارب الأمم وتهذيب الأخلاق.

ب - علم التاريخ :

لم يقتصر التاريخ العربي على تناول تاريخ العرب أو تراجم مفكريهم وقادتهم . وإنما تناول أحوال الكثير من الأمم الأخرى فأصبح ذلك العلم يتميز بصفته الجمعية العمومية ، وعبر بوضوح عن أحداث الماضي وكيفية النظر إليها كحكمة ووسيلة للاعتبار والمقارنة لهذا نجد بعض المؤرخين مثل مسكويه يسمى تاريخه تجارب الأمم[٢٥] .

حفل عصر مسكويه بتطور المادة التاريخية نتيجة للنمو والازدهار الحضاري . وأن أبرز ما طرأ على مادة التاريخ في تلك الحقبة هو الكثرة والوفرة في عدد المؤلفات . والوفرة في كمية المادة المدونة وفي تنوعها . حتى أصبحت مؤلفات القرن الثالث كثباً من عدة مئات من الأوراق[٢٦] . ثم جاء الطبري في نهاية القرن الثالث الهجري ليكرس تقليداً جديداً بجعل كتب التاريخ في عدة آلوف من الورق وعدة أجزاء ضخمة[٢٧] .

وكما تفتحت المؤلفات تنوعت المعلومات التاريخية وتعددت الموضوعات المطروقة . حيث شعر الناس أن كل شيء يستحق أن يسجل ويكتب وأن الحياة السياسية أصبحت تراثاً طويلاً من جهة أخرى[٢٨] .

ج - مؤلفات مسكويه :

لمسكويه عدد من المؤلفات في مجالات العلم والفلسفة والأخلاق شتى. ولكن سأقف عند كتابه الأهم وهو (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) .

أن كتاب مسكويه تجارب الأمم هو من كتب التاريخ العامة المعروفة بالحوليات ابتدأه مسكويه من بعد الطوفان وأنهاه سنة تسع وستين

وثلاثمائة[٢٩]. الا أن القفطي يحدد تاريخ إنهاء مسكويه لكتابه في سنة أثنتين وسبعين وثلاثمائة أي في السنة نفسها التي توفي فيها صاحبه عضد الدولة[٣٠].

وهذا الكتاب غني عن التعريف فهو ليس تاريخاً فحسب فقد دخل في مجال الفلسفة وهو لا يعدّ كتاباً محضاً في التاريخ إنما هو كتاب تحرى فيه مؤلفه ذكر الحوادث بأسبابها ونتائجها ، فيصح أن يقال أنه كتاب تاريخ مكتوب بشكل فلسفي ولا غرابة في أن تجتمع الفلسفة والتاريخ والأدب في شخص واحد فقد ثبت أن مسكويه كان فيلسوفاً ومؤرخاً وأديباً[٣١] . لقد توخى مسكويه في كتابه تجارب الأمم الدقة والتخلص من معظم صور التحيز[٣٢] أن مسكويه درس في كتابه تجارب الأمم تاريخ ملوك الفرس ظناً منه أنه أقدم تاريخ مسجل للذين تابعهم حتى سقوط الدولة الساسانية ذاكراً بعض الإشارات العابرة خلال ذلك إلى البابليين والإغريق والروم وعرب ما قبل الإسلام وقد احتل أولئك الملوك حوالي عشر الكتاب أو أقل من ذلك بينما تناول في باقي المجلدات تجارب السياسة خاصة في التاريخ الإسلامي[٣٣] .

لقد درس مسكويه في كتابه وبحث جلياً الجانب السياسي من سيرة الرسول محمد (ﷺ) . وكذلك المشاكل السياسية وقد أسعفه حسن ذوقه في الإفادة من الأدب القيم ، وقد أعتمد في ذلك على الطبري مصدراً يعتمده بعد حذف سلسلة الأسانيد واختصار الرواية[٣٤] . ويلاحظ أن مسكويه في كتابه تجارب الأمم لا يسير على التنظيم الحولي الا في القسم السياسي والأخير من الكتاب ، أما قبل ذلك فأنه يتبع أساس المواضيع في التدوين التاريخي ، وقد عرض مسكويه الأحداث في هذا الكتاب بشكل موضوعي ومتماسك وعند مقارنته مع كتاب (الغرر في سيرة الملوك وأخبارهم) للثعالبي نجده يشبه في بعض النواحي كما يشير إلى ذلك روزنثال الا أنه يختلف عن كتاب تجارب الأمم في أن مسكويه لم تكن تنقصه الخبرة التاريخية والبصيرة النافذة ذات المعنى الحسي للتاريخ

على العكس من الثعالبي الذي كان يعوزه كل ذلك غير أنه لم تبق من الغـرر الا أجزاء متفرقة لا تكفي لإصدار حكم معين على قيمته التاريخية[٣٥] . أن لتجارب الأمم أهمية ذات معنى تاريخي مهم لأن مسكويه أراد من خلال كتابه هذا أن يقدم تاريخاً عاماً ينظر له على أساس أن التجربة السياسية تكون مادته الأولى ليكون درساً في الأخلاق ويظهر ذلك واضحاً في أن مسكويه أكد في عموم كتابه هـذا دراسته في تدبير أمور الحكم والدولة .

د – الدروس والعبر التاريخية في كتاب تجارب الأمم:

من الأمور المهمة التي انصبت عليها فلسفة مسكويه الأخلاقية في مجال التاريخ هو الهدف التعليمي السياسي أو التربوي من الحوادث التاريخية التـي يغطيها في كتابه التجارب إذ أن مسكويه يؤكد دوماً أن أمور الـدنيا متشـابهة وأحوالها متناسبة حتى صار جميع ما يحفظه الإنسان من أحداث تاريخية كأنها تجارب له وكأنه قد عاش الدهر كله .

ومن الحوادث التي يعدّها مسكويه جديرة باسم تجربة سوء السيرة التي سار عليها أبو الفتح أبن العميد والتي انتهت بالقبض عليه وقتله ولهـذا فأنـه عندما يرويها يقول (وإنما ذكرنا هاهنا جملة من تدبره لنفسه "أبو الفتح" ونحن نشرحها مفصلة في الأمور التي حدثت في سنة ٣٦٥ هـ ليعتبر بها المعتبرون ويجري مجرى تجارب الأمم التي يتكرر مثلها فيحترز منها[٣٦] .

ومن الأشياء المهمة التي حدثت لعلم التاريخ في القرن الرابع الهجـري حلول الهدف التعليمي والتربوي والمراد منه توعية الإنسان في تلـك الحقبـة الزمنية من الفوضى التي كانت تدب في أركان الحياة الاجتماعية ، إذ أضـحت الغاية المرجوة من وراء علم التاريخ في ذلك العصر هي كشف القيمة الأخلاقية للأفعال وشرح الأفعال والأمثال ذات النفع العام وتنشئة الجيل[٣٧].

وفي هذه الحقبة أيضاً تم استبعاد المفهوم الديني الذي كان قد أسبغ عليه الاحترام والتبجيل وحلت محله القيمة الأخلاقية في دراسة المفاهيم التاريخية وتحليلها أي أنه يخلد ذكر الأعمال الصالحة لتكون عبرة للأجيال القادمة[٣٨] . والتاريخ في نظر مسكويه تجارب مدونة مرت على السلف يحسن بالخلف الإطلاع عليها وقراءتها واتخاذها إماماً يقتدي به عند حدوث الملمات ، فأن أمور الدنيا متشابهة وأحوالها متباينة وصار جميع ما حفظه الإنسان من هذا الضرب كأنه تجارب له ، وقد أحتك بها كأنه قد عاش ذلك الزمان كله وباشر تلك الأحوال بنفسه[٣٩] .

لقد دفعت هذه النظرية التجريبية مسكويه إلى الاقتصار في تاريخ ما قبل الإسلام على كل حالة فائدة وعظة من الناحية التعليمية وإلى ما يتصل بالسياسات وعمارات البلدان وجمع كلمة الرعية وإصلاح نيات الجند وحيل الحروب ومكايد الرجال وما تم منها إلى العدو وما رجع على صاحبه[٤٠] . والتجربة والموعظة أثر بليغ في نفس مسكويه فالحياة لديه عبارة عن مجموعة من الأحداث التي يجب أن يتخذ الإنسان منها معنى أخلاقياً ويكون هدفه الأسمى في هذه الدنيا . ويبدو ذلك واضحاً في أنه لم يبحث الجوانب الدينية في حياة جميع الأنبياء حتى النبي محمد (ﷺ) وإنما بحث الجانب السياسي فقط إذ أن الحوادث السياسية وما يترتب عليها من مصلحة ونتائج نهائية عند مؤرخنا مسكويه عبرة يجب أن يعبر بها الإنسان الذي يقرأ عنها ، والتي يشهدها بعينه . وهذه النقطة هي أهم ما يميز طريقة طبقة الكتاب في الكتابة التاريخية والتي ينتمي إليها مسكويه .

أن خير ما عمله مسكويه إزالة الأخبار والحوادث التي تكون بمثابة الخرافة التي لا فائدة منها .

لقد كانت للإنسان مكانة بارزة في نفس مسكويه وعقله وتفكيره وعده الغاية الأسمى له وهذا يظهر من مدى حرص مسكويه الكبير في أن الإنسان يجب أن يتخذ العبرة من الأحداث التي تقع له وبالتالي الحفاظ عليه كقيمة عليا في المجتمع . ومن مؤلفات مسكويه الأخرى هي :

١ - كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق[٤١] .

٢ - كتاب الحكمة الخالدة[٤٢] .

٣ - كتاب الفوز الأصغر[٤٣] .

٤ - كتاب السعادة[٤٤] .

المبحث الثاني

الدولة والحكم والسلطة في فلسفة مسكويه التاريخية

أ - موقف مسكويه من الدولة والنظام السياسي :

أن منزلة الملوك والحكام في نظر مسكويه هي أنهم أشد الناس نقداً وذلك لكثرة حاجتهم إلى الأشياء وهم أشقى الناس في الدنيا والآخرة ، وهم إذا أصبحوا ملوكاً على الناس فأن الله (ﷻ) يجعلهم غير قانعين بما يمتلكون من جاه ومال ويجعلهم يرغبون بما في يد غيرهم حتى ولو كان ذلك قليلاً مقارنة بما يمتلكون من أسباب الثروة والجاه[٤٥] .

ويرى مسكويه أن الإنسان عندما يرى ظاهر الملوك وما يمتلكون من الغرس والزينة والأثاث ويشاهدون في مواكبهم محفوفين مكرمين بالحشم والخدم والعبيد والحجاب فأن مشاهدة الإنسان العادي لهم بهذه الأبهة والفخفخة يدهشه المنظر ويروعه التنظيم بعد هذا كله يحسبهم ذلك الإنسان أنهم في أوج

راحتهم وفي منتهى سرورهم ، لكنهم برغم هذا كله فأنهم لا يرون أبهتهم بل هم مشغولون عنها بأفكار أخرى تعتري عقولهم[٤٦] .

ويوضح مسكويه الخطوط العريضة للحكام أو الأمير ويبين العدالة السياسية التي يجب أن ينتهجها الرئيس تجاه المرؤوسين ، حيث يؤكد مسكويه قبل كل شيء .

أن العدالة السياسية هي جزء من الفضيلة بل هي الفضيلة كلها ، وإذا كانت الوظيفة والمسؤولية بمفهومها الحقيقي عبارة عن المعاملة الحسنة مع الغير والإخلاص والتفاني في سبيل إسعاد الصالح العام ، فالعدالة اسم يشملها كلها فهي الجامعة لكل هذا التعامل مع الآخرين[٤٧] .

يجب أن يسود النظام وينعدم الطغيان وتسود العدالة وبذلك يكون الحاكم عادلاً ناطقاً لأنه ينطق بالعدل الذي يجب أن يكون النهج الواحد لكل أبناء المجتمع الذي يكونون الدولة من دون أن يكون للظلم والاستغلال مكان بينهم[٤٨].

إن الإنسان عند مسكويه في حالة إتمام ذاته واكتمال شخصيته لابد من معاونة الآخرين له حتى تكون حياته على وفق ما ينبغي عليها من الكمال والسعادة ولهذا كما يقول الحكماء أن الإنسان مدني بالطبع[٤٩] . وهذا معناه أن الإنسان بحاجة إلى مدينة فيها مجموعة كبيرة من الناس لكي يحصل على السعادة الإنسانية والسعادة عند مسكويه مقترنة بتكوين الدولة ، وهنا يبين مسكويه النهج المراد للحاكم والواجب عليه انتهاجه إذ أن الحاكم هنا هو بمثابة العقل المدبر للرعية حيث من عزيمته يستمدون العزيمة ومن أقواله يتعلمون نهج الحياة . فإذا كان الحاكم مدبراً أميناً ومصلحاً حقيقياً نشأ أفراد رعيته أصحاء قادرين على بناء أمجاد عظيمة وبهذا السلوك النموذجي للراعي وللرعية يعم الخير وتنتشر السعادة حيث يبلغها الأفراد كافة[٥٠].

أن واجب الحاكم في نظر مسكويه تشويق الأفراد نحو سعادتهم ، وعناية الرئيس والحاكم بالناس تنقسم إلى قسمين : الأول إرشاد الناس نحو العلوم الفكرية والثاني توجيههم نحو الصناعات والأعمال الحسية . أن مسكويه يقارن مسؤولية الحاكم أو الملك نحو الرعية مع صاحب المنزل ورب البيت بالنسبة إلى أفراد أسرته حيث يقول مسكويه (أن نسبة الملك إلى مدينته ورعيته كنسبة صاحب المنزل إلى منزله وأهله)[٥١] . نستنتج من هذا كله أن مسكويه يريد من الحاكم سواء كان ذلك بمثل الخليفة أو الأمير أن يعملوا جاهدين على خدمة أبناء بلادهم حيث أنهم المسؤولون أمام الله (ﷻ) ، ويجب عليهم أن يكونوا بمستوى هذه المسؤولية وأن يتعظوا بالأحداث التي تحدث لغيرهم في هذه الدنيا ومن خلال نتائج هذه الأحداث يتعلمون التجربة والموعظة الحسنة التي تهديهم إلى ما فيه الخير والسعادة وما دامت الحياة زائلة ولا تساوي شيئاً في نظر مسكويه فالأحسن لهؤلاء الحكام الذين يرعون أمور الناس أن يعملوا لخدمة أبناء جلدتهم ويكونوا مشروعاً دائماً للتفاني في سبيل إسعادهم وتحقيق رغبات شعوبهم حتى يتركوا بعد ذلك ذكراً حسناً ويكونوا القدوة لأبناء مجتمعهم وبذلك يحصلون على ذكر خالد في هذه الحياة بعد موتهم لأنهم أسهموا في عمل الخير وخلقوا جيلاً صحيحاً قادراً على القيا بالمسؤوليات من بعدهم.

ب - روح النقد التاريخي عند مسكويه :

من الأمور التي تفسد صحة التاريخ أو تشوهه هي عندما يحابي المؤرخ أميراً أو وزيراً أو صاحب سلطان حيث أن ذلك يعدّ بمثابة الآفة التي تقتل وتفتك كيفما طاب لها أن تفتك . أن ما يجب أن يكون عليه المؤرخ أن يكون موضوعياً وعلمياً في رواياته وأخباره على الأصعدة كافة في مختلف الأماكن والأزمنة.

أن من أوائل المؤرخين الذين أسقطوا جانب المجاملات والاعتبارات من حسابهم هو المؤرخ الأخلاقي مسكويه فقد كان متصلاً ببني بويه ولكن ذلك لم

يمنعه من أن ينقد بعض أعمالهم ويعلق على بعض تصرفاتهم[٥٢] . أن مؤرخنا مسكويه لم يكتف بسرد الروايات فقط والنقل بغير تعليق أو موازنة بين الروايات أو تحقيق بين الأسانيد حيث نقد الخبر في ذاته من حيث إمكان وقوعه أو عدم إمكانه ومن حيث صحة زمانه أو مكانه[٥٣] . فكان أسلوبه هذا جديداً في التاريخ وكان مسكويه نموذجاً للمؤرخ العربي المتكامل.

لقد أراد مسكويه أن يجعل خبرات الأمم تستخدم كأمثلة للقراء ، فهو كان يعرض إلى ما هو جوهري وذات قيمة[٥٤] . من هنا نقارن بين مسكويه الذي كان يتميز بروح النقد التاريخي للأحداث التي عاصرته حيث يذكرها بالتفصيل من دون مجاملة أو مساهمة أو مهادنة وبين مؤرخ آخر له شأن وهو أبن الجوزي إذ عاصر هذا المؤرخ حادثتين كبيرتين في قصر الخلافة في بغداد ، أولاهما المؤامرة على الخليفة المستنجد بين ولده وبين قيماز وقد مات الخليفة المستنجد فعلاً نتيجة هذه المؤامرة . والأخرى قتل الخليفة المستضيئ بالله لأبن البلدي وزير أبيه الذي كان أول من فطن لتلك المؤامرة ، لكن أبن الجوزي لم يشر إلى ذلك فقد أشار في حوادث سنة ٦٥٦ هـ إلى موت الخليفة المستنجد إشارة ليس فيها ما يدل على حادثة المؤامرة[٥٥] . ولعل عذره في ذلك المجاملة تزلفا إلى الخليفة الجديد أو خوفاً من غضبه ، لكن هذا الأسلوب لم نجده عند مؤرخنا مسكويه .

ج – تحليل واستنتاج :

من الاستنتاجات التي توصلنا إليها هي :

١ – أن مسكويه البحاثة والمؤرخ قد كرس حياته لخدمة إنسان عصره وانتشاله من مسالك الضلالة إلى طريق الخير والنور ، إذ كان للحالة الاجتماعية والأخلاقية في عصره أثر كبير في دفعه إلى التفكير في إصلاح نفوس الناس وتوجيهها إلى حياة الفضيلة .

٢ - أن ما رآه مسكويه وما شاهده عن كثب بام عينيه من ظلم الأمراء والوزراء ومن بينهم أبن العميد وعضد الدولة وغيرهم كان باعثاً له ف ان يضع برنامجاً إصلاحياً شاملاً للمجتمع يبين فيه الفضائل ويعظم قيمتها ويذم الرذائل ويقدمها وكيف أنها العامل الهادم لكل ما هو خير.

٣ - أن مسكويه أراد من التاريخ وأحداثه أن تكون العبرة والموعظة للإنسان الذي يعيش الحدث لأن الأحداث في رأي مسكويه تتكرر بين حين وآخر وهو بهذا يؤكد أن التاريخ هدفه تعليمي تربوي وسياسي .

٤ - أن مسكويه امتاز بروح النقد التاريخي وعدم المهادنة والمساومة في نقل الحقيقة كما هي فبالرغم من علاقته الوثيقة ببني بويه الا أنه نقل الكثير من العيوب والأخطاء والممارسات غير الإنسانية التي قام بها البويهيون. وبهذا يكون مسكويه مثالاً للمؤرخين الحق الصادق في تعامله مع الحدث ونقله كما هو من دون خوف من أمير أو وزير.

٥ - لقد نظر مسكويه للإنسان على أنه القيمة العليا في المجتمع فلذلك يجب حمايته من أخطار هذه الحياة من خلال تبيان طريق الصواب له وبنائه بناءً صحيحاً سواء كان هذا البناء على المستوى المادي أو الروحي فهذه في نظر مسكويه مسؤولية الإنسان الحاكم والذي يرى مصالح الرعية بنفسه ويكون القدوة لشعبه في التعامل الصحيح مع معطيات الحياة.

الهوامش :

١. متز، الحضارة الإسلامية ، ج١ ، ص٣ .
٢. دائرة المعارف الإسلامية ، ج١ ، ص٢٧٧ .
٣. الحموي، معجم الأدباء ، ج٥ ، ص٥ .
٤. عزت، مسكويه فلسفته الأخلاقية ، ص٦٥ .
٥. الحموي، معجم الأدباء ، ج٥ ، ص٥ .
٦. القفطي، تاريخ الحكماء ، ص٦٥ .
٧. الحموي، معجم الأدباء ، ج٥ ، ص٥ .
٨. عزت، مسكويه فلسفته ، ص٨٠-٨١ .
٩. م.ن ، ص٨٥ .
١٠. القفطي، تاريخ الحكماء، ص٣٣١ .
١١. عزت، مسكويه فلسفته ، ص٩٠ .
١٢. م.ن، ص٩١ .
١٣. مرغوليوث، دراسات عن المؤرخين ، ص١٥٠ .
١٤. عزت ، مسكويه فلسفته ، ص٩١ .
١٥. عزت، مسكويه فلسفته ، ص٩٢ .
١٦. أبن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص٢٦٥ .
١٧. المعاضيدي، تاريخ الدويلات ، ص٥٨ .
١٨. م.ن ، ص٦٠ .
١٩. عزت، مسكويه فلسفته ، ص٧١ .
٢٠. الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص١٠٩ .
٢١. دائرة المعارف الإسلامية ، ج١ ، ص٢٧٧ .
٢٢. عزت، مسكويه فلسفته ، ص٧١ .

٢٣. مسويه، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٤٠٨ .

٢٤. م.ن ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

٢٥. روزنثال، علم التاريخ ، ص١٩٦ .

٢٦. مصطفى ، التاريخ العربي ، ج١ ، ص٢٩٤ .

٢٧. م.ن ، ص٢٩٤ .

٢٨. م.ن ، ص٢٩٤ .

٢٩. الحموي، معجم الأدباء ، ج٥ ، ص١٠ .

٣٠. القفطي، تاريخ الحكماء ، ص٣٣١ .

٣١. مصطفى، التاريخ العربي ، ج١ ، ص٤٠٨ .

٣٢. جمعة ، تاريخ فلاسفة ، ص٣٢١ .

٣٣. مصطفى، التاريخ العربي ، ج١ ، ص٤٠٨ .

٣٤. كحالة، التاريخ والجغرافية ، ص٥٥ .

٣٥. روزنثال، علم التاريخ ، ص١٩٦ .

٣٦. مسكويه، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص٣٠٣ .

٣٧. مصطفى ، التاريخ العربي، ج١ ، ص٤٥٣ .

٣٨. جب، دراسات في حضارة الإسلام ، ص١٥٩ .

٣٩. كحالة ، التاريخ والجغرافية ، ص٥٤ .

٤٠. مصطفى، التاريخ العربي ، ج١ ، ص٤٠٩ .

٤١. زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج١ ، ص٧٥ .

٤٢. عزت، مسكويه فلسفته ، ص١٣٦ .

٤٣. م.ن ، ص١٣٥ .

٤٤. م.ن ، ص١٣٥ .

٤٥. جمعة ، تاريخ الفلاسفة ، ص٣٠٥ .

٤٦. م.ن ، ص٣٠٥ .

٤٧. مسكويه، تهذيب الأخلاق ، ص١٠٨ .

٤٨. م.ن ، ص١١١ .

٤٩. م.ن ، ص١١١ .

٥٠. م.ن ، ص١١٥ .

٥١. مسكويه، تهذيب الأخلاق ، ص١١٥ .

٥٢. حسن ، علم التاريخ ، ص١١٥ .

٥٣. م.ن ، ص١١٦ .

٥٤. روزنثال ، علم التاريخ ، ص١٩٥ .

٥٥. حسن ، علم التاريخ ، ص٤٧ .

المصـــــادر :

أبن الأثير : عز الدين علي بن محمد .

١. الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥ .

جب : هاملتون

٢. دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمـــة د. إحســـان عبـــاس ، دار العلـــم للملايين ، بيروت، ١٩٦٤ .

جمعة : محمد لطفي

٣. تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ، مطبعة المعارف، القـــاهرة، ١٩٢٧ .

٤. دائرة المعارف الإسلامية .

روزنثال : فرانز

٥. علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح العلي، مؤسسة فـــرانكلين، نيويورك ، ١٩٦٣ .

زيدان : جرجي

٦. تاريخ آداب اللغة العربية ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٨.

الصفدي : صلاح الدين بن ايبك

٧. الوافي بالوفيات ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٩ .

عزت : عبد العزيز

٨. مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة، ١٩٤٦ .

القفطي : جمال الدين أبو الحسن

٩. تاريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة لايبـــزك، لايبزك ١٩٠٣ .

كحاله : عمر رضا

١٠. التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية الوسطى ، المطبعة التعاونية ، دمشق ، ١٩٧٢ .

متز : آدم

١١. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٦٧ .

مرغوليوث :

١٢. دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة د. حسين نصار دار الثقافة، بيروت.

مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الخازن

١٣. تجارب الأمم وتعاقب الهمم . مطبعة التمدن الصناعية ، القاهرة . ١٩١٥.

١٤. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

مصطفى : شاكر

١٥. التاريخ العربي والمؤرخون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٣ .

المعاضيدي : خاشع ود. رشيد عبد الله الجميلي .

١٦. تاريخ الدويلات العربية الإسلامية ، مطبعة الحديثي ، بغداد ، ١٩٧٩.